ألكسيس كاريل

للاستاذ عبد الفتاح الديدى

عقلية من تلك العقليات الخصبة التى أفادتها الخبرة أكثر مما أفادتها المعلومات، وذهن صوفى متطلع إلى معانى الحياة بين المظاهر المعاشية دون توقف عن حدود السطور والقروء . فهو مثال الرجل الذى يحس الانسان عند قراءته بأنه فى حضرة مفكر ابتعد عن التفاصيل والتفت إلى الكليات ونظر فى حقائق الأمور ، لا من حيث هى مبحث موقوف على نوع خاص من أنواع الدراسة ، وإنما من حيث هى مجال للتأمل والتدبر فى كل حين ، وعند كل انسان . فثقافته أكبر من تعليمه ، وتربيته أكثر من معرفته ، فجاءت كتبه حية ينبض فيها الدم ، عميقة تأسر اللب ، واضحة وضوح العبقرية المتزنة بعد أن اضطربت فى كمينها عصارة العلم والفلسفة والأدب جميعاً .

ذاك هو الكسيس كاريل مؤلف كتاب الانسان ذلك المجهول ولد فى فرنسا بالقرب من ليون فى سنة ١٨٧٣ . وبعد أن نال الدكتوراه ودرجة أخرى فى العلوم سافر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٥ حيث اشترك فى معهد روكفلر للأبحاث الطبية بنيويورك ولم يعد من هنالك إلى فرنسا مرة أخرى إلا بعد أربع وثلاثين سنة أى فى عام ١٩٣٩ ، واشترك بعد هذا فى أعمال حربية حتى نوفمبر من عام ١٩٤٤ حيث مات تاركاً تراثاً علمياً رائعاً وخليطاً بعض الكتب من غير إتمام. ومن مؤلفاته كتاب عن الصلاة وكتاب بعنوان (الطب الرسمى وطب الزندقة) وقصة كتبها فى سن الثلاثين بعنوان (رحلة مدينة لورد) . وهذه القصة يوحى من نزولا ومطبوعة فى مجموعة تضم يوميات وتأملات وابتهالات . أما كتابه عن « سر الحياة » فقد كان يزمع أن يجعله

المعرفة نفسها — بنت الخطيئة — قد أوشكت أن ترد إلى آدم وحواء ما فقدا من الحياة الأبدية حتى يخرجهما الله من جنته قبل أن تدلها المعرفة على شجرة هذه الحياة الأبدية الدائمة . فأنه بعد ذلك يقول الرب الأله : (هو ذا الانسان قد صار « كواحد منا » عارفاً الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد) وأخرجه الرب الأله من جنة عدن « ليعمل الأرض التى أخذ منها »

فهذا آدم الذى أخرج من الجنة بالخطيئة ، كاد أن يدخل فى زمرة الآلهة بنفس الخطيئة

• • •

ومن الناس من يعيش الآن — على الأرض الملعونة — وهو سعيد ناعم ، كأنه فى الجنة ، لأنه يعيش على هامش الحياة تلك الحياة النباتية التى لا تنفعل ولا تتأثر ولا تدرك إلا ما يحيطها أو يمس خاصة شأنها أو طعام يومها . فهى فى نعيم ولكنه بعيد عن « نعيم » المعرفة . ذلك النعيم الذى لا يدرك ولا ينال إلا بالأقتحام وشجاعة القلب والذهن والمغالبة والأقدام

وكذلك كانت حياة الرواد والمخترعين والمفكرين والقادة وكل أولئك الذين أفادت البشرية كلها من حياتهم ومعرفتهم وتفكيرهم وخطاياهم ، وقديماً قال الشاعر العربى

ذو العقل يشقى — فى النعيم — بعقله
وأخو الشقاوة — فى الجهالة — ينعم

وكذلك يقول العامة « المجانين فى نعيم . ! »

ولحكمة بالغة أراد الله لآدم وحواء أن يقارفا الخطيئة حتى يعرفا — ونسلهما من بعدهما — الخير والشر ، وما قيمة الحياة بلا معرفة . ؟

وفى كتب العقيدة الاسلامية والتفسير — وخاصة كتاب « المواقف » — مباحث بارعة عن الانسان والملائكة وأيهما أفضل . ؟ الملاك الذى لم يقارف معصية لأن الله برأه من الشهوات والنزوات والرغبات وخلقه بفطرته للطاعة ؟ أم الانسان الذى خلقه الله وركب فيه النوازع والرغائب وسلط عليه همزات الشياطين؟

محمود الشرقاوى

على طراز الانسان ذلك المجهول ومكملا له . إذ جاء كتابه الانسان ذلك المجهول فريداً فى نمطه ، فذاً فى نوعه ، ومشجعا له على أن يتبعه بآخر من نفس الطراز . وقد اشتهر هذا الكتاب فى الأوساط الثقافية جميعها : أوربية وشرقية ، لما فيه من تجربة إنسانية عميقة ونظرة علمية ممزوجة بروح صوفية جارفة.

وقد حاول كاريل أن يوقف هذا الكتاب بصفحاته الثلاثمائة على دراسة الانسان من نواحيه المختلفة ؛ وكان يؤمن بأنه لا بد من أن نعطى تخطيطا عاما لما تقدمه لنا العلوم المختلفة من المساعدات إذا شئنا أن ندرك حقيقة ذواتنا وأن نقف على ماهية نفوسنا . ومن الضرورى فى رأيه — علاوة على ذلك — أن نصف فى تدقيق شامل وفى تفصيل كامل تلك العمليات الطبيعية والكيميائية والفسيولوجية التى تختفى من وراء ذلك الاتساق الاجمالى فى حركاتنا وأفكارنا . وكان مقدراً لهذا العمل أن يكون مستحيلا لولم تسمح لنا أساليب المعيشة فى العصر الحديث من الملاحظة والتجريب ، ولولم تقدم لنا المعونة من أجل تحقيق هذه الرغبة الهائلة . فبفضل المنشئات العلميه التى تعنى بالنواحى المختلفة من الإنسان استطاع الدكتور كاريل أن يعد التفاته وأن يرعى بنفسه مجالات الحيوية الكثيرة لدى الأفراد .

وليس لكتابه هذا من غرض كما يقول هو نفسه إلا أن يجعل تحت أيدى الناس مجموعة من النتائج العلمية والحقائق الخاصة بالكائن البشرى الذى يحيا فى هذه الفترة بالذات . فعلى هذا النحو يمكننا أن نلمس جوانب الضعف فى مدنيتنا ونحس بما بدأ يظهر عليها من أعراض التهالك والانهيار . فإذا صح أن هناك طائفة معينة تخصها بهذا الكتاب الذى بين أيدينا فأظنها تلك الطائفة التى آثرت الهروب من حياتنا الاجتماعية والإفلات من أسر عاداتنا الحديثة وقيودنا المصطنعة . والكسيس كاريل نفسه واحد من هؤلاء ؛ إذ آثر فى آخر أيامه أن يعتزل فى جزيرة سانت جيلدا حيث أمضى بقية عمره .

ولما تأمل كاريل حياة المجتمع الحديث أحس بأننا قد شغلتنا المسائل الشكلية عن أمور جوهرية فى غاية الأهمية بالنسبة إلى الإنسان فى معاشه وتصرفه ووجوده . ولعل حياتنا اليوم قد غدت أكثر صعوبة وتعقيدا وأشد اضطرابا وأدعى للتفكير فى أمر موقفنا منها بعد كل هذه التغيرات . وإذا كان للعلم فى حد ذاته قيمة ما ، فذلك لأنه يؤثر فى كياننا بأجمعه ويجعلنا نرتد إلى أنفسنا ونناقش أفعالنا ونجدد أخلاقنا . أما أن يكون العلم مدعاة للانشغال عن الإنسان بهذه الأشياء العارضة فى حياتنا ، وبهذه المظاهر التى تنأى بنا عن الذوق والخير والصحة ، فذلك أكبر دليل على أننا لم نحتط للثورة التى أحدثناها بأيدينا ، ولم نعد العدة من أجل أن نوجد مثالا حيويا يحقق آمال الإنسان وأمانيه قبل أن يرضى مطامعه وشهواته .

ومن هنا حاول كاريل أن يؤكد ظاهرة التكيف وأن يضعها فى الرتبة الأولى من مظاهر الحيوية الإنسانية . وذلك طبيعي بالنسبة إلى عقليته التى ترى ضرورة المواءمة بين علوم العصر الحاضر وبين حياة الإنسان فى المجتمع . فالعلم الذى لا يفيد فى استناد الإنسان إليه عند حل مشاكله المختلفة لا ينفع فى شىء ولا يؤدى إلى نتيجة ذات قيمة . وظاهرة التكيف هى الأمل الوحيد الذى يفتح أمام الإنسان منفذا إلى حياة مستقيمة كريمة بإزاء أحداث الحياة ودلائل الحضارة . ثم إن الدكتور كاريل يؤكدها ويبين خطرها وهو يعلم أن الأمر لا يقتصر على الاستفادة من جانبها الفسيولوجى ، وإنما يمتد أكثر فأكثر إلى الناحية الاجتماعية وهى الناحية الجديرة باعتبارنا لما تتصف به من الآدمية . فالمفكرون والفلاسفة يعرفون ظاهرة الجسم الطبيعية فى تكيفه مع البيئة ومع الحرارة والبرودة ومع المؤثرات الخارجية ؛ ويعلمون أنه قد كان من المستحيل على الأطباء أن يتقدموا قيد أنملة فى علوم الجراحة والتضميد لو لم تكن هذه الظاهرة محل عنايتهم واهتمامهم. ولا بد لهم بعد ذلك أن يتعظوا بالتقدم الهائل الذى أحرزه الأطباء نتيجة لالتفاتهم إلى هذه الحقيقة . إذ أنهم يستطيعون فى بابهم أن يفهموا علوما فى غاية من الخطورة على أساس من بحثهم لظاهرة التكيف الاجتماعى .

فالعمليات الحيوية العقلية تجنح إلى خدمة الفرد وإعانته على أداء مهماته . مثال ذلك أن الإنسان يندفع عادة وراء فضوله ورغبته الجنسيّة ، وطموحه وحبه للمال حتى يجد نفسه فى أجواء غير مألوفة لديه أو لعلها تصل إلى درجة المعاداة له . وها هنا يتحقق من ضرورة الغلبة والانتصار على العناصر التى تحيط به

أو أن يكبت الدوافع التي تشب في صدره وتتأجج في خاطره . ومن المستحيل أن يتم لنا العمل الأخير للقضاء على النزعات الباطنة من غير أن نعنى بالتكوين الفردى المستقل للانسان . أما عن العمل الأول ، وأعنى به التغلبة والصراع مع العناصر المحيطة والظروف المجتمعة ، فلا شك أن الإنسان يحتاج عند النزول إليه والاشتباك فيه إلى قوة شخصية وطاقة نفسية تعينه على أن يطمح ولا يطمع ، وأن تمتد يده بالحق ، وأن يضرب في صفوف الخير ، وأن يسعى بغير أن يسيء سعيه إلى الآخرين . ليس هذا فحسب وإنما يدخل ضمن عملية التكيف الاجتماعي هرب الإنسان عند اللزوم . فالهرب لابد منه في كثير من الأحيان وخاصة عندما يستحيل النمو الصحيح والتكامل المشروط مع المجتمع الذى نعيش فيه .

فهناك أشخاص لا يستطيعون أبدا أن يتكيفوا مع الجماعة . من بين هؤلاء ضعاف العقول ، ومن بينهم من سلم عقله ولكنه أمضى فترة طويلة بين الأشرار والأوغاد حتى استحال عليه أن يعود من جديد فيتكيف مع الحياة الاجتماعية السليمة . وإن لم يستطع علماء الاجتماع أن يستفيدوا من هذه الظاهرة فأغلب الظن أن علومهم ستكون قليلة النفع بالنسبة إلى المستقبل . ومن هذا كله نرى أن أهم ما في ظاهرة التكيف هو أنها تفتح أبواب الأمل للانسان المسكين في تقدمه وارتقائه الذى يحدث على صورة وثبات ونهضات متفاوتة أو حركات طورية مستديمة .

ثم في هذا الكتاب الذى وضعه كاريل تفصيل دقيق لفكرة الزمن . ولأول مرة في تاريخ علم النفس يأتي باحث ليقدم مثل هذه الدراسات القوية العميقة في آن واحد . لقد حاول أن يحدد أنواع الزمن فجاءت أربعة من بينها زمن جديد بالمرة هو الزمن الفسيولوجي . وكما استطاع كاريل أن ينتقل بظاهرة التكيف من مجالها المحدود إلى مجالات الحياة الفسيحة ، حاول ها هنا في كلامه عن الزمن أن يبرز أهمية الزمن الفسيولوجي من الناحية البيئية الخالصة . وهو في أصله عبارة عن الوقت الذى نستغرقه الجرح حتى يلتئم أو الذى يمر على العضو الجسدى إبان تكوينه .

وتكلم بإفاضة عن الزمن النفسي فقال إنه نوع من القياس الشعورى لكمية العواطف والانفعالات التي تتدفق من باطن الوجدان ومن داخلية الفؤاد ساعة تأثره وتجاوبه مع الوقائع الجارية في حياتنا الخاصة أو العامة . وإذا كان يمكننا القول بأن الزمن النفسي يعتمد على شيء سواء فان يكون ذلك الشيء غير الذاكرة الإنسانية . إن الذاكرة هي التي تجعلنا نحس بمرور الزمن وبتواصله على قدر ما تعيننا الأحداث في الخارج أو تصوراتنا الخاصة داخل نفوسنا . والدليل على ذلك أن تكوين شخصيتنا على وجه التعميم قائم على أساس من تذكرنا للتاريخ الفردى واستحضارنا لما جرى لنا في الأيام الماضية .

والملاحظة الثانية التي يسوقها كاريل في تعليقه على الزمن النفسي هي التي يعتمد عليها في تأييد وجه الاختلاف والتباعد بين كل من الزمن الفزيائي والزمن النفساني . فهاهنا يذكر أن الزمن الطبيعي (الفزيائي) الذى يمضي علينا في سن الطفولة والبلوغ لا يزيد على ثمانية عشر عاماً ، بينما تزيد سنوات النضوج والشيخوخة في عمر الفرد على الخمسين أو الستين . فالإنسان يبدأ بفترة نمو قصيرة ثم تعقبها فترة تمام واكتمال طويلة . ومع هذا فان الزمن الفزيائي يفقد كل قيمة هنا تبعا لشعور الإنسان بأن سنوات الطفولة طويلة وبطيئة بينما يحس أن السنوات تكون قصيرة جداً أثناء الشيخوخة . وهذا يثبت مفارقة عجيبة ويبرهن على أن الزمن النفسي محل اختلاف داعماق تقديره والإحساس به وتعداد جزئياته عند الأفراد .

وهنا يجرى قلم كاريل بفقرة تعد من أرفع ألوان الكتابة الأدبية . يقول « تبدو لنا أيام طفولتنا كما لو كانت بطيئة جداً . أما أيام نضجنا فتمتاز بسرعتها التي تبعث على الفزع . وقد يكون هذا الشعور ناجما من أننا نضع الزمن الطبيعي بطريقه لا شعورية داخل إطار المدة . ويبدو لنا الزمن الطبيعي مختلفاً من غير شك عن تلك المدة بصورة عكسية . إذ يتراقى الزمن الطبيعي بسرعة واحدة بينما تنقص سرعتنا نحن دائما . ويشبه ذلك نهراً كبيراً يجرى في سهل ، ويمشي في ذلك السهل إنسان نشيط محاذياً النهر منذ طلوع النهار . وتبدو له المياه آنئذ كسولة ولكنها تزيد من سرعتها شيئا فشيئا . وعند الظهيرة لا تسمح المياه لذلك الإنسان النشيط بأن يتخطاها . أما إذا اقترب المساء فانها تضاعف من سرعتها ، وغالباً ما يقف الانسان بينما يمضي النهر في طريقه بغير إشفاق . والحق أن النهر لم يغير قط من سرعته ولكن سرعة خطواته هي التي نقصت . ومن الممكن أن نعزو البطء الظاهر

فى بدء الحياة ، وقصر المدة الختامية إلى أن السنة كما نعلم تمثل لدى الطفل والشيخ نسبا مختلفة من حياتيهما الماضيتين ومع ذلك فان الأكثر احتمالا هو أننا ندرك إدراكا غامضاً مشى زماننا الداخلى الذى يبطىء إلى غير حد والذى يتمثل فى عملياتنا الفسيولوجية . وكل منا هو الانسان الذى يجرى على طول النهر ويعجب حينما يشتد تزايد سرعة مرور المياه . »

وأخطر وأهم من هذا كله ما يقوله الكسس كاريل عن ظاهرة التصوف . والذى يمتاز به هذا الجانب النظرى فى عرضه هو أنه امتزج بروحه وصادف تجاوبا مع نفسه ولاقى ميلا واندفاعا هائلين من داخلية ذاته يؤيدان تفكيره وهواه . وحماس كاريل النظرى فى العرض الفلسفى لهذه الظاهرة لم يكن مجرداً من التجربة الشخصية ولم يكن محروماً من التأييد الحيوى . فكاريل متصوف قبل أن يكون فى عداد العلماء ، وجرت عليه نزعته تلك متاعب كثيرة ، إذا اعتبره رجال الكنيسة خارجا على أحكام الدين . وبعض أقواله تذكرنا بالوثنيين الأقدمين . قال فى يومية بتاريخ ٣١ يولية ١٩٤١ « يستطيع الدين بقدرة فائقة أن يعين الانسان على ملاحظة قواعد الحياة بناء على ما يضيفه العنصر الناطق إلى العنصر العقلى . إن الناس مهيئون على نحو يجعلهم محتاجين إلى التجاوب مع كائن حى أكثر من تجاوبهم مع فكرة ما . وكثير من الناس قد ضحى بحياته من أجل وطنه ، ولكن التضحية تكون أكثر إمتاعا إذا كان موتهم من أجل نابليون . إن حب الرجل أقوى من حب الفكرة . إن الراهبة التى تقوم منهوكة فى الرابعة صباحا كيما تبدأ عملا لا ينتهى أبداً ، إنما تبذل هذا المجهود المخيف حبا فى المسيح وحبا للمساكين والصغار ، وليس ذلك من الشعور بالغيرية أو من الرغبة فى شغل عمل بين الناس . ولذلك فان الدين يبث فى السلوك عنصراً عاطفياً . فهذا الكلام على صحته وعمقه لا يلائم جماعة المتدينين الذين يريدون التجريد ويزعمون الخلاص بتجربة الروح بين أجراس الكنيسة وإنشاد الآباء .

ومن ابتهالاته التى نشرت فى نهاية قصة مدينة لورد قوله : إلهى : أشكرك لأنك حفظت لى الحياة أمدا أطول من الأمد الذى خصصت به زملائى الأقدمين . قبل أن تطوى الكتاب هبنى من لدنك فضلا يربى ما خلق على حتى الآن . لقد كانت حياتى كالصحراء بسبب حرمانى من معرفتك .. فلتأمر على الرغم من الخريف بأن تزهر الصحراء . وستكون كل دقيقة من الأيام التى تبقت لى موقوفة لجلالك . ولا أطمع فى شىء من أجل نفسى سوى رحمتك . وسأبقى بين يديك كالدخان الذى تحمله الرياح . فاعطنى النور حتى أقوى على إعانة أولئك الذين أحبهم . ومن كلامه أيضا فى هذا الباب : إلهى . خذ بزمامى بعد أن تهت فى الظلام . وسأفضل كل ما توحى على إرادتك بفعله . ينبغى أن أقترب من جلالك يا إلهى بكل نقاء وتضرع . فكيف أصلح الشر الذى تسببت فيه للاخرين وأنى اليوم خيرا كنت قد قصرت فى فعله ؟

ومن ابتهاله ليلة عيد الميلاد : أى ألهى . . كم آسف لأننى لم استطع أن أفهم شيئا فى الحياة ! وكم آسف لأننى قد حاولت أن أفهم أشياء من العبث أن نحاول فهمها . فالحياة لا تحتوى على الفهم وإنما على الحب ومساعدة الغير والصلاة والقيام بالأفعال . فليكن أجلى متأخرا يا إلهى ، ولتأمر بأن تظل الصفحة الأخيرة من الكتاب غير مكتوبة حتى يمكن أن يضاف فصل آخر إلى هذا الكتاب الفاسد . تكلم فعبدك الحقير منصت لك . إنه يهبك مابقى له ، ويضحى من أجلك بحياته كما لو كانت صلاة . إنه يطلب إليك أن تهديه سواء السبيل . . سبيل البسطاء والمحبين والمصلين فاغفر له كل الأخطاء التى جناها فى حياته . وأعط النور من كان جاهلا بالمرة . فكل لحظة من الزمن تسمح له بأن يحياها ستمر لتحقيق مرادك فى السبيل الذى تختاره أنت من أجله . أى إلهى . فى هذا اليوم الذى يعيد ذكرى ميلاد ولدك ، أجعل منك النهاية الكلية لذاتى وأرسم عليك حدودى آسفا لأننى قد مررت خلال الحياة كالأعمى . »

فالى هؤلاء الذين يؤمنون بالباطن من أهل التصوف أقدم هذه الشخصية التى آمنت بالروح وهى فى أسفل مباحث المادة ، وتشربت بالنزعة الصوفية وهى فى غمار العلم الخالص ، واستطاعت أن تنفذ إلى السماء بين ضوضاء المدنية المترفة وجلبة الحياة الصارخة وناموس الطبيعة المبسوط .

عبد الفتاح الديدى